العدد (4084) السنة الخامسة عشرة - الإثنين (11) كانون الأول 2017
http://www.almadapaper.net Email: info@almadapaper.net

العودة الى مكتبة لينين بموسكو من أجل هاشم جواد

د. ضياء نافع

كان دستويفسكي جالساً وهو متوتر وقلق وحزين أمام مكتبة لينين بموسكو عندما خرجت من محطة المترو المسماة - (مكتبة لينين)، وتوجهت للدخول الى المكتبة من جديد بعد أربعين سنة منذ آخر مرّة كنت فيها توقفت - طبعا - كي أتأمل تمثال دستويفسكي ، الذي يقف منذ عام ١٩٩٧ أمام المكتبة التي تحمل اسم غريمه الفكري ، وفهمت عمق الأحداث التي مرّت بها روسيا، وكيف يجسّد هذا المكان صورة رمزية فريدة لكل هذه التحولات الجذرية التي وضعت هذا التمثال الضخم لمؤلف رواية (الأبالسة) (شبه الممنوعة في الاتحاد السوفيتي ، والحليم تكفيه الاشارة!!!) أمام المكتبة الأولى في روسيا ، والتي تحمل اسم لينين ، قائد الثورة الاشتراكية ومؤسس دولتها.

لحد اليوم – مكتبة لينين !) كل ما أرغب بالاطلاع عليه من مصادر. شكرتها جزيل الشكر ، وتوجهت الى القاعة رقم ١ والتي كنت أقرأ فيها كل ما أطلبه من كتب ومجلات ، وأنا أتذكر أيامي الخوالي في القرن الماضي ، عندما كنت ألتقي مع الراحلة أ.د. حياة شرارة في تلك القاعة ، بل اني تذكرت حتى كيف دردشنا معا عندما كنا نشرب القهوة مرّة ، عن رغبتنا بالاقتراب من مولوتوف (وزير الخارجية السوفيتية الشهير) الذي كان يجلس وحده في نفس تلك القاعة وهو يطالع الكتب بهدوء ، والتحدّث معه ، ولكننا لم نتجاسر طبعا على القيام بذلك، اذ انه كان في تلك الفترة من المغضوب عليهم .

اقتربت من الموظفة المسؤولة وأخبرتها بأني أرغب بالاطلاع على كتاب باللغة العربية صادر في بغداد عام ١٩٤٦ كنت قد وجدته هنا قبل اربعين سنة، فقالت لي وهي تبتسم – لقد تغيّر الزمن ، ويوجد لدى المكتبة الآن فرع خاص بالمصادر الشرقية ، وطلبت منيّ أن أسير معها نحو النافذة ، وأشارت الى ذلك الفرع عبر الشارع ، وهكذا اضطررت أن أذهب الى هناك ، وعندما دخلت استقبلني موظف الاستعلامات ورافقني الى حيث الأرشيف ، وبدأنا نبحث معا عن كتاب بعنوان – (مقدمة في كيان العراق الاجتماعي) بقلم هاشم جواد ، والصادر في بغداد عام ١٩٤٦ ، وسألني الموظف – هل أنتَ متأكد من وجود هذا الكتاب في مكتبتنا ؟ فقلت له نعم ، وإنني شاهدته بنفسي قبل أربعين سنة . وهكذا وجدناه . طلب مني الموظف أن انتظر في القاعة المخصصة للبلدان العربية ، و ذهب لجلب الكتاب . جلست في القاعة وشاهدت هناك مئات الكتب العربية والانكليزية والفرنسية والفارسية عن مختلف البلدان العربية ، و التي أرسلتها لهم تلك البلدان ، عدا العراق ، اذ لم أجد أي كتاب أرسله العراق لهم ، وكم تألّمت لذلك ! عاد الموظف الى القاعة وأخبرني ، ان الكتاب الذي طلبته قد تم ارساله الى الحفظ الدائم ، وتوجد فقط نسخة من المايكروفيلم له ، وان المكتبة ستجهزه لي غداً في الرابعة عصرا في القاعة الخاصة بعرض تلك الأفلام النادرة.

وهكذا عدت في اليوم التالي ، ووجدت الفيلم جاهزاً – طبعا - ، ووضعوه في الجهاز الخاص وبدأت بمطالعته .إنه صادر ضمن مطبوعات جمعية الرابطة الثقافية ، ومطبوع في مطبعة المعارف / بغداد ١٩٤٦ ، وعنوانه – (مقدمة في كيان العراق الاجتماعي) ، ومؤلفه هاشم جواد ، هذا المثقف العراقي الكبير ، الذي أصبح وزيراً لخارجية الجمهورية العراقية في وزارة عبد الكريم قاسم منذ عام ١٩٥٩ الى ٨ شباط ١٩٦٣ ، والذي انتقل للعمل في منظمة الأمم المتحدة في بيروت ، حيث تم اغتياله هناك كما هو معروف (انظر مقالتنا بعنوان – حوار مع هاشم جواد) .لقد أخبرت هاشم جواد في ذلك الحوار بأني وجدت كتابه هذا في مكتبة لينين ، ولكني لم استطع الاطلاع عليه ، فقال لي انه يعتز بهذا الكتاب ، وانه لا توجد لديه أية نسخة منه ، وقد فهمت الآن سبب اعتزاز هاشم جواد بهذا الكتاب المهم فعلاً في دراسة الواقع الاجتماعي للعراق ، حيث نقرأ في مقدمته ما يأتي – (أضع اليوم بين يدي القارئ هذا الكتيب في موضوع يستوعب البحث فية مجلدات كثيرة ، يستغرق وضعها سنين طويلة وجهود عدد كبير من المشتغلين بالشؤون الاجتماعية ، ومع اني أقدّر أهمية الموضوع و الصعوبات التي تكتنف شتى فروعه و تفصيلاته ، ومع قلة المواد العلمية والاحصائيات المضبوطة اللازمة لخوض غماره. مع هذا كله ، فقد أقدمت على وضع مقدمة فيه ، لا رغبة في النشر ولا سعياً وراء المكسب ، بل حبّا في إنارة البحث والنقاش ، وخلق الرغبة عند الجيل الجديد من أبناء شعبنا في معالجة أحوال بلادهم بطريقة علمية...).

يتناول هذا الكتيب كما يسميه مؤلفه مواضيع في غاية الأهمية ، إذ يبدأ بنظرة حول أرض العراق قديماً وحديثاً ، ثم يتحدث عن أحوال البلاد الطبيعية ، ويتوقف عند سكان العراق ويعطي احصائيات تفصيلية من ولادات ووفيات في المدن العراقية وحسب السنين ويستخلص الاستنتاجات العلمية الدقيقة من هذه الاحصائيات ، ثم ينتقل الى اقتصاد الكيان الاجتماعي ، حيث يتوقف عند التجارة والنقل والخدمات والأعمال الاقتصادية الاخرى ، ويتناول كفاءة العمل الصناعي ونشأة الصناعة الحديثة في العراق ، وحتى الصنائع اليدوية عند مختلف الفئات مثل سكان الأهوار وغيرهم ، ويتحدث عن دخل الفلاح ومجاله المعيشي ونظام اللزمة وواقع الفلاح ودور السركال وطرق الحراثة والري وعوامل قلّة الانتاج الزراعي ، ويعطي جداول احصائية متنوعة وشاملة جداً حتى بعدد انتاج كيلوغرامات الحنطة والشعير في مدن العراق المختلفة، ويتوقف عند تشريع العمل ومستوى الأجور عند الفلاحين والتباين بينها مقارنة بمستوى أجور الصناعات الاخرى ، ويدعو العمال الى تشكيل النقابات للعناية بشؤون العمال ورفع مستواهم الثقافي والصحي والاجتماعي والاخلاقي ومنع تشغيل النساء والمراهقين ليلاً وعدم تشغيل الأحداث الذين هم دون الثانية عشرة في الصناعة ، ويتناول العوامل المؤثرة في المحافظة على الصحة ، ويعطي جداول احصائية تفصيلية وعديدة حول عدد المرضى في المستشفيات الحكومية ونوع الأمراض السارية وحسب السنوات ، ويتوقف عند الخدمات الصحية في العراق تفصيلاً ، ويعطي جداول عن مخصصات الدولة العامة للخدمات الصحية ، وينتقل الى دراسة التغذية في العراق ، ثم يتناول موضوع التعليم وعلاقته بالكيان الاجتماعي وأهميته الكبرى ، ويعزز كل ذلك بجداول احصائية فريدة ، ويتوقف عند علاقة انتشار التعليم بوضع المجتمع الطبقي و ارتباط كل ذلك بأسس الكيان الاقتصادي (وهذه نقطة جوهرية يجب أن لا تغيب عن بال الباحث في القضايا الاجتماعية) كما يشير المؤلف...

إن هذا العرض السريع لمضمون الكتاب يبين بما لا يقبل الشك الأهمية الكبيرة له ، ويؤكد ضرورة إطلاع القارئ المعاصر عليه كي يقارن ويتأمل ويستنتج.... وشكراً لمكتبة لينين لانها حفظت للعراقيين هذا الكنز الثقافي الذي لا يقدّر بثمن.

البرج العاجي

▪ فوزي كريم

في أكسفورد: حيدر وذاكرة الطفولة

في غاليري "همنْغويْ" Hemingway، في ضاحية من ضواحي مدينة أكسفورد، يُقام معرض للفنان التشكيلي حيدر (عراقي مقيم في فرنسا منذ ١٩٧٦). استجبتُ لدعوة الافتتاح مع بضعة أصدقاء. كان أول المساء ممطراً ولكن بعنوبةٍ، والضاحية التي دخلناها معتمة ولكن بشفافية؛ تسمحُ لسحر الجادّات الرطبة المحلات بورق الخريف، وملامح البيوت الخفيضة، والأسيجة النباتية، والأشجار، بأن يُرخي من صياغتنا اللندنيّة المتوترة. ما من ركن يوحي بفاعلية فنية في هذه الناحية التي تشبه قطةً منطوية داخل فروها الدافئ. ثم اهتدينا إلى نوافذ مضاءة، وكأنها تطل من لوحة كلاسيكية، تتزاحم فيها الأوجه، والأذرع، وكؤوسُ النبيذ، وما يفلتُ من لغط الحديث.كان الغاليري في ثلاث قاعات، تتوسط إحداها مائدة مستطيلة كريمة في مازتها وشرابها. وعلى الجدران تتوزع لوحات حيدر؛ بالغة الأناقة في حوارها مع بالغي الأناقة، من سيدات وسادة أوساط أكسفورد. في مستوى أخفض، تتوزع أعمال سيراميك منسجمة مع اللوحات، لفنان انكليزي مشارك يُدعى "أندرو هازيلدن"، يستحق حديثاً لوحده.

حيدر يفضل لوحته أن تظل بحجم تنصرفُ له العين بيسر، وتُحيطُ بتفاصيلها المرئية، دون الذهاب إلى ما وراء الإطار للإجتهاد والتأويل في الدلالة. إنه حريص على التشكيل البصري، على أن لا يحاصر اللونَ ويتفوق عليه. في اللون يقع الفنانُ حيدر على ضالته. ولذلك تجد مساحات اللون، بالرغم من استراحتها الظاهرة، مُنشغلة أبداً بعناصرها الكثيرة التي ولدتها. اللونُ دائما وليدُ خلطة من مواد خام ليس من السهل اكتشاف مصادرها. ولكي يُذكّر حيدر عينَ المشاهد بذلك يترك خلطة اللون، لا اللون، بما تنطوي عليه من شوائبَ ونسيج وخشونة، ملءَ البصر. لونٌ خشنٌ ما من ملاسة فيه، حتى لو ابتعدتْ العينُ عن اللوحة بمقدار.

حيدر ولد في مدينة الشطرة، ونشأ في مدينة الناصرية، جنوبي العراق. وبالرغم من أنها تقع على نهر الفرات، إلا أن سمتها الغالبة ترابية. السومريون كانوا هناك، ينعمون بالماء من النهر الخالد، ولكنهم ما إن يغادرون النهر مسافة قليلة، حتى يُعانون من الجفاف الذي تُعلن عنه عظامُ الموتى من الانسان والحيوان. فهل لوحة حيدر، إذن، وليدة ذاكرة أم مخيلة، وقد وضعها على الأغلب في منفاه خارجَ وطنه، ومدينته؟طفولة حيدر وصباه ينعمان بفضيلة كان يتمتع بها البيت في مدن الجنوب؛ هي شيوعُ التشكيل بحركة تكويناته الناشطةً، وشيوع اللون الذي لا تطفأ إضاءته. هذا التشكيل واللون تجدهما في البيبان والشبابيك، وتجدهما أكثر في نسيج البسط، في شراشف الأسرّة وأغطيتها، وثياب النساء. في المنفى يستعيد الفنان، والكاتب أيضاً، مادته الخام من أيام طفولته وصباه. يستعيدها وكأنها لا تنتسب إلى الذاكرة، لأنها أعمق بدرجات من فعل التذكر الظاهر لسنوات الشباب.

في أعمال حيدر الفنية المبكرة (غير متوفرة في هذا العرض) ينشط فعل التذكر الظاهر، الذي يرجع لسنوات الشباب في بغداد. ولذلك تقع على ردود الأفعال الكابية الكسيرة والمباشرة لسنوات الاضطهاد، تحت سلطة دكتاتورية الحزب الواحد، ولا تكاد تتضح ملامحٌ من المادة الخام التي تعود إلى أيام الطفولة والصبا المبكرين، والتي سنراها بارزة في الأعمال التالية (وفي هذا المعرض خاصة). فيها نرى أن رؤيا حيدر الفنية في معظم أعماله المتأخرة إنما هي وليدة فرك الصدأ عن سطح تلك الذاكرة. منها تنبعث حبيباتُ الألوان الخشنة، شظايا الخشب، الخرزُ الملون، الأسلاك، والمسامير، والخيوط الملتاثة بالتراب والطين. وكذلك أطرُ البيبان والنوافذ، وشراشيبُ البُسط، وتلك الأشكال التي تنطوي على رُقىً ورموز. إنها أشياء الحياة التي ينعم بها البصرُ، والبصيرة، الطفوليان.

هذه الخلطة في التشكيل واللون لا تترك اللوحة صامتة. بالرغم من أنها توهم بذلك، حين يُنظر إليها عن مَبعدة. وهذه الخلطة أيضاً لا تترك اللوحة دون فعلٍ درامي، بالرغم من أنها توهم بذلك. فبالرغم من السكينة الظاهرة ثمة حركة دائبة في الخطوط والكتل المتعارضة مع بعض، وفي الحضور اللوني البارد أو الحار، لا فرق، تتضح مع اقتراب العين.

ثمة معرض آخر في معهد العالم العربي، باريس (٢٨ من هذا الشهر) يشارك فيه حيدر كلاً من الشعراء أدونيس وفينوس خوري غاتا في "حوار الرسم والشعر".

حيدر ولد في مدينة الشطرة، ونشأ في مدينة الناصرية، جنوبي العراق. وبالرغم من أنها تقع على نهر الفرات، إلا أن سِمتها الغالبة ترابية.

الكهرباء وثورة اكتوبر في الثقافة الجديدة

متابعة المدى

العدد الجديد من مجلة الثقافة الجديدة لشهر تشرين الثاني عام ٢٠١٦، يتضمن كلمة خاصة عن "ثورة أكتوبر... مائة عام وما زالت الراية ترفرف!" هذا الموضوع جاء خلال كلمة هيئة التحرير للمجلة، ذُكر فيه "أن الانهيار الذي حصل بحدّ ذاته هو حدث مأساوي ولكن له ميزة إيجابية إن صح القول هي أنه أسهم في دك أسوار الجمود العقائدي، وحرر العقول من قيود الأيدولوجيا بمعناها السلبي، ما أعطى دفعاً قوياً للنقاش والحوار، وفتح الابواب أمام انطلاقة كبرى للفكر للتجوال في رحاب البحث والتقصي والاستكشاف حيث يلاحظ المرء هذا الكم الهائل من الدراسات والأبحاث والمناقشات الساخنة والاجتهادات غير المألوفة والاستنتاجات المفاجئة."

يبدو أن هذا العدد جاء يحمل ميلاً سياسياً ثقافياً، من بين أهم المقالات الذي تضمنها عدد تشرين الثاني للثقافة الجديدة مقالاً بعنوان "هل تحتاج البصرة سداً" للدكتور فائق يونس المنصوري، مُعرفاً خلال مقاله السد، ومُشيرا إلى أن التفكير أصبح جدياً بتحويل التخصيصات المالية المقرّة لإنشاء سدة على شط العرب الى تبني فكرة انشاء قناة مائية رديفة لمشروع ماء البدعة، تقوم بنقل جزء من الحصة المائية المقررة للبصرة، ولكن يجب ان تكون عبارة عن قناة انبوبية مغلقة للتغلب على مشاكل فقد المياه نتيجة التبخر أو ضياعها نتيجة الرشح.

أما عن الطاولة المستديرة لشهر تشرين الثاني لمجلة الثقافة الجديدة، كانت تدور حول الأزمة الكهربائية "الجذور، الواقع، الحلول، ورهانات الخصخصة مقاربات تخصصية" كما تضمن هذا العدد مجموعة من النصوص القديمة لفلاديمير لينين... ونصوص مترجمة أخرى، أما عن الحوارات فشملت حواراً مع اخصائي الطب النفسي وقضايا الهجرة الدكتور رياض البلداوي، تحدث خلاله البلداوي عن "موضوعة معالجة المهاجرين لمعرفة ماهية النظام الاجتماعي للبلد الجديد وكيفية التفاعل مع البيئة الجديدة، ويذكر البلداوي أن هذا الاختلاف بالنموذج العائلي وقوانين المجتمع يجب أن توضح للمهاجرين، ففي السويد هنالك اشكالية في هذا الموضوع حيث يقع على السلطات مسؤولية كيفية مزج المهاجر في المجتمع الجديد..."أما ضمن بوابة أدب وفنون، فقدمت المجلة موضوعة "اتحاد الأدباء ومحاولاتهم لمحو كم السواد والظلام والظلم، من خلال نص كلمة الأمين العام للاتحاد العام للادباء إبراهيم الخياط في افتتاح مهرجان قصيدة النثر الثالث في البصرة، كما قدم الدكتور صبيح الجابر موضوعة الدلالات الايدولوجية والسياسية في النخلة والجيران وروايات جهاد مجيد، إضافة الى ما قدمه الكاتب والشاعر سلمان الكاصد حول تشكلات البنى الاجتماعية والتقابلات والانساق السردية في رواية الذباب والزمرد."

نادي الشعر يحتفي بفرج الحطاب

حين يرتقي الشاعر عن أدلجة السلطة

متابعة المدى

عُرفت التجارب الأدبية وخاصة القصيدة بأدلجتها المنحازة للسلطة، فقد لعبت السلطة دوراً كبيراً في حياة الكُتّاب والادباء، كما تحكمت بنوعية نصوصهم، إلا اننا نجد بين مجموعة من المُنخرطين في صفوف السلطات والمؤدلجين لسياسة السلطة مجموعة أفراد اختاروا طريقاً بعيداً عن هذا التوجه، الشاعر فرج الحطاب كان واحداً من هؤلاء الافراد الذي استحق أن يُحتفى به من قبل نادي الشعر في الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق خلال جلسة اقيمت صباح يوم السبت الفائت في مقر الاتحاد للحديث عن تجربته...

قدم الجلسة الناقد علي حسن الفواز مُتحدثاً عن أن "علاقة المثقف بالسلطة والايديولوجيا هي علاقة تاريخية مهمة، حيث نجد أن الشعراء ارتبطوا بالسلطة بشكل كبير من خلال البيانات الشعرية التي ظهرت عام ١٩٦٣، إضافة الى الكتابات الشعرية والمفارقة كانت انعكاسا للوعي البيئي للمجتمع، فهم لخصوا طبيعة الأزمة السياسية ليصعد جيل السبعينيات الذي سنلحظ فيه ظهور حالة من الانقسام بين الشعراء."

في تلك الفترة انطلقت خطى الشعراء نحو المنفى كما قال الفواز " ذلك لأن الشاعر وإن لم يكن على علاقة بالسلطة إلا انه يبحث عن حريته بشكل عام لأنهم يرفضون الاشكالات والعقد والغموض بشكله العام." مؤكداً "أن الشاعر لم يهرب الى منفاه وانما القصيدة الباحثة عن مساحة الحرية هي التي هربت."

الشاعر فرج الحطاب ابتعد عن هذه الأدلجة كما ذكر الفواز، أما عن تجرتبه التي وبحسب قول الفواز "جمعت بين بساطة النثر، وجمال الموسيقى أحترفت جمال الاستعارة وحرفية استخدام الكلمات حيث مارس الشاعرية بوعي خاص ومميز."

المحتفى به الذي قدم مجموعة من القصائد السياسية والغزلية من بينها قصيدة مجانين، وقصيدة سيول أليفة من مجموعته لعام ١٩٩٦، ذكر أنه اضافة الى ما قدمه من قصائد ومجموعات شعرية فقد قدم أيضا "دراسة عن اول عمل له باللغة الانكليزية وهو دراسة عن الزيارة الاربعينية في العراق، ذاكراً أنه اختار هذه الموضوعة لأنها جدلية يعتقد البعض انها متأثرة بطقوس إيرانية وليس طقوس عراقية فقط. "في مداخلة للكاتب عبد الأمير المجر ذكر " أن معرفتي بالمحتفى به شخصية اضافة الى انها معرفة ثقافية، بدأت علاقتي به منذ مطلع التسعينيات وهو من جيل تأثرت خلاله الثقافة العراقية بسياستين أحدها الشيوعية والأخرى البعثية فنجد أن عدداً من المثقفين آنذاك مُحتضنون من قبل الحزب الشيوعي وآخرون محتضنون من قبل حزب البعث، وهذا لم يكُن على صعيد العراق فحسب بل أغلب الدول في العالم نجد أن الحواضن السياسية تضم العديد من المثقفين."

مؤكداً "أن فرج الحطاب وبعض من زملائه ابتعدوا عن هذه الأدلجة السياسية والخضوع السلطوي."

وأكد المجر على "أن إخلاص فرج الحطاب للشعر كان بمثابة هجرة عن السلطة، فهو لم يكن مؤدلجاً ولم يقدم إنجازاً موجها لجهة ما ويمكن أن أجزم أن هؤلاء جيل كانوا ذو نفوس خاصة يجب أن تُدرس ضمن سياقات موضوعية."